كبيرا كشمعون بيرس يدّعي ان انتصار اليهود ليس نتيجة تفوق عسكري وحسب بل هو نتيجة تفـوق اخلاقي ايضا[١٦] . وقد فرضت على اليهود في بعض الدول انماط «قانونية» تلائم نزعة الانغـلاق، وذلك عن طريق أسوار «الغيتو» والحياة الخاصة في داخلها. ومن هنا كانت «مدينة البندقية في ايطاليا، التي لم تكن خاضعة لسلطة البابوات، اول من ادخل نظام الغيتو في حياة اليهود، عندما أصدر مجلس المدينة سنة ١٥١٦، أمراً اجبر بموجبه اليهود في المدينة على السكن في حيّ مغلق خاص بهم»[١٧] . ولكن هذا النظام «القانوني» و «الاجباري» كان خدمة كبرى لليهود، وتجسيدا وتكريسا لما يؤمن به دعاة الانعزال حول رفضهم الاندماج بالشعوب التي كانوا يعيشون بينها. بيد ان الآخرين الذين فرضوا عليهم نظام الغيتو كانوا يعتقدون بأنهم يقيدون حرية اليهود ويقدمون خدمة جلّى للمسيحية والكنيسة. لكن النتيجة كانت عكس ما اعتقده هؤلاء وكأنهم كانوا يعملون معا يدا بيد من أجل المعتقدات اليهودية وتحقيق أهدافها.

ولم يقتصر نظام الغيتو على ايطاليا وحدها، بل تعداه ليشمل مدنا في مناطق اخرى. حيث بعد مئة عام على إقامة اول غيتو يهودي في البندقية، اقيم غيتو آخر في سنة ١٦١٦ في مدينة فرانكفورت «حيث فرض نظام الغيتو على اليهود في المدينة المذكورة بناء على اتفاق خاص بذلك بين مجلس المدينة وسكانها اليهود.. اما في سنة ١٦٢٤ فقد فرض هذا النظام ايضا في مدينة فيينا، ولكن هذه المرة بناء على طلب اليهود انفسهم»[١٨] . ومما يجب ذكره في هذا المجال، دور الحركة الاندماجية اليهودية او ما كان يطلق عليها اسم هسكالا **Haskalah** اي حركة التنوّر. وقد دعت هذه الحركة لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، والقضاء على تميزهم واستعـلائهم. بيد ان الأحداث المتتابعة وفقدان الأمل بقيام مجتمعات اوروبية تحررية عادلة قادرة على استيعـاب اليهـود اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، أديا، في النهاية، إلى عجز حركة هسكالا وانتصار دعاة الانغلاق والتعصب العرقي، وتشجيع المتمولين اليهود على الهجرة خارج حدود القـارة الاوروبيـة خوفا من المنافسة البرجوازية على الصعيد الاوروبي الذي اتخذ من الجاليات اليهودية اداة رئيسية في مساعدة الاستعمار الاوروبي خارج نطاق القارة. وهذا ما حدث مثلا اثناء حملة نابوليون على الشرق عام ١٧٩٨، عندما دعا اليهود لمساعدته مقابل إعادتهم إلى القـدس وإعادة بناء هيكل سليمان، وقد وقفوا الى جانبه. وكان انهيار الحركة الاندماجية (هسكالا) بشكل كامل بعد عملية اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني عام ١٨٨١ والمجازر التي ارتكبت بحق اليهود، حيث كان من نتيجتها قيام منظمات وجمعيات صهيونية مكانها كان أولها «جمعية احباء صهيون» والثانية «بيلو» ومعناها رجوع أهل يعقوب الى فلسطين. وكانت المهام الرئيسيـة لهاتين الجمعيتين إحياء اللغة العبرية، وشراء الاراضي في فلسطين، وتدريب الشباب اليهـودي وتهجـيره إليهـا. وتعتبـر هذه، البذور السياسية الاولى للحركة الصهيونية. وتمكنت الجمعيتان من إنشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين للمهاجرين اليهود، وكان اولها مستعمرة ريشون لزيون **(Richon le Zion)** قرب يافا عام ١٨٨٢ [١٩] .

هذا وقد ساهم كثير من المتمولين اليهود في تهجير اليهود إلى فلسطين من أجل الاستيطان والاستعمار. وكانت اسرة البارون روتشيلد من اكبر الاسر التي لعبت دورا في هذا المجال، إلا ان هذه العمليات «التهجيرية» بقيت دون المستوى المطلوب لانها لم تأخذ بعدا منظما وتخطيطا دقيقا، ولم تف، بالتالي، بما هو مطلوب. وهذا ما إخذه هرتسل على عاتقه منذ عام ١٨٩٧، وذلك بإجراء التغيير الجذري في الستراتيجية الصهيونية بعد فشل المجهود الأول لزرع جالية من المستوطنين الصهيونيين في فلسطين في السنوات الخمس عشرة الاولى من الاستعمار الصهيوني (١٨٨٣ - ١٨٩٧) والاستعاضة عن ذلك ببرنامج قومي منظم قادر على إحراز النتائج المرجوّة.